مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (6) العدد (6) 2022
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (6) No. (6) 2022

رثاء الأقارب في شعر أحمد علي حَسَنْ
"نماذج مختارة"

أ.د. محمّد معلّا حَسَن *

آلاء رائد العبّاس**

(تاريخ الإيداع 8/11 /2022. قُبِل للنشر في 11/6 /2022)

□ ملخّص □

الرّثاءُ موضوعٌ مِنْ موضوعاتِ الشّعرِ العربيّ، يُعبّرُ فيه الشّاعرُ عَنْ حزنِه وأساه لفقدانِ عزيزٍ أو قريبٍ لَهُ، كما يُعدّدُ خصالَ فقيدِه الحميدةَ، ومناقبَه الحَسَنةَ، ويتضمّنُ الرّثاءُ وجهاتٍ عديدةً، لعلّ أشدّها حسرةً وألماً رثاءَ الأقارب؛ إذْ يدخلُ في معظمِه في بابِ النّدبِ والنّواحِ، حيثُ تكونُ القلوبُ فيه مُنفطِرةً مِنَ الأحزان.

كانَتْ للشّاعرِ أحمد علي حَسَنْ بصمةٌ في موضوعِ الرّثاء، وقد اخترْنا في بحثِنا هذا موضوعَ رثاءِ الأقارب في شعره، والّذي اشتملَ على رثائه لأبيه، وإخوته، وأعمامه، وأبناء أعمامه، وأخواله، وأبناء أخواله، وتضمّنَ شعرُ الرّثاءِ عنده مجموعةً مِنَ القيم والأفكار، ولعلَّ أبرزها الحزنَ والحسرةَ وإظهارَ اللوعة، هذا ما تبيّنَ لنا مِنْ خلالِ مناقشتِنا لأشعارِه الرّثائيّة الّتي نظمَها في أقاربه الرّاحلين، لقد سعيْنا مِنْ خلالِ دراستِنا هذه إلى الكشفِ عن أهمّ الأفكار والقيم الّتي طرحَها فيها.

الكلمات المفتاحيّة: رثاء الأقارب، أحمد علي حَسَنْ

*– أستاذ دكتور، قسم اللغة العربيّة، جامعة طرطوس، سورية.

**– طالبة ماجستير، قسم اللغة العربيّة، جامعة طرطوس، طرطوس، سورية.

مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (6) العدد (6) 2022
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (6) No. (6) 2022

Lamentations of relatives in the poetry of Ahmed Ali Hassan "Mukhtar models"

Dr.Mohammad Moa'alla Hassan*
Alaa Rayid Al Abbas**

(Received 11/8 /2022. Accepted 6/11/2022)

□ ABSTRACT□

Lamentations is one of themes of Arabic poetry, in which the poet expresses his grief and sorrow for the loss of a loved one or a relative, as he enumerates the good qualities of his deceased and his good qualities. Lamentation includes many aspects perhaps the most heart breaking and painful is the lamentation of relatives as most of it falls under the section of lamentations and mourning where hearts are broken with sorrows, The poet Ahmed Ali Hassan had an imprint on the subject of lamentation and we chose in this research the subject of lamenting his relatives, which included his lamentation for his father, brothers, uncles, cousins, uncles,and nephews, it included aset of values and ideas, perhaps the most prominent of which are sadness, heart break, and expression of affection. This was revealed to us through our discussion of his elegiac poems that he composed his lamentation relatives through this study we sought to reveal the most important ideas and values that he presented in them.

Key words: Lamentation relatives, Ahmed Ali Hassan.

*Professor Dr. Arabic Literature Department,Tartus university, Syria.

**Postgraduate student, Arabic Literature Department,Tartus university, Syria.

مقدّمة:

يَأتي الرّثاءُ في طليعةِ موضوعاتِ الشّعرِ العربيّ، هو فنُّ الحزنِ و الأسى، فكانَ يُساعِدُ على التّنفيسِ عَنْ كربِ الشّاعرِ وفجيعتِه، وسيبقى هذا الغرضُ مُستمراً طالما هناك حياة وموت وفجيعة شعراء بِمَنْ يُحبّون. لقصيدةِ الرّثاءِ في شعرِنا العربيّ مكانتُها البارزة، وهي مكانةٌ مُنبعِثةٌ مِنْ أهميّةِ موضوعِها، وهذه المكانةُ تتضحُ في شعرِ الشّاعرِ المُعاصِرِ أحمد علي حَسَنْ؛ فَقَدْ كانَتْ له بصمةٌ في هذا الغرض تستحقُّ الدّراسة.

- يتناولُ البحثُ موضوعَ رثاءِ الأقاربِ عندَ الشّاعر أحمد علي حَسَنْ، مُحاولاً الكشفَ عَنْ أهمّ الأفكارِ والقيمِ الّتي تناولَها الشّاعرُ فيها، وسيكونُ ذلك مِنْ خلالِ تقسيمِ مراثيه المنظومةِ في أقاربه الرّاحلين ومعالجتها والّتي كانَتْ في أبيه، و إخوته، وأعمامه، وأبناء أعمامه، وأخواله، وأبناء أخواله، وستكونُ دراستُنا بناءً على ما يَأتي:
  - الرّثاءُ لغةً واصطلاحاً
  - التّعريف بالشّاعر أحمد علي حَسَنْ
  - مفهوم رثاء الأقارب
  - وجهات رثاء الأقارب عندَ الشّاعر:

أ. رثاء الأب

ب. رثاء الأخوة

ت. رثاء الأعمام وأبناء الأعمام

ث. رثاء الأخوال وأبناء الأخوال

أهميّة البحث وأهدافه:

يَكْتَسِبُ البحثُ أهميّته مِنْ خلالِ تسليطِ الضّوءِ على موضوعٍ مهمّ عندَ الشّاعرِ أحمد علي حَسَنْ، فَقَدْ أجادَ في موضوعِ الرّثاءِ، كما تتأتى أهميّةُ البحثِ مِنْ كونه دراسة جديدة كلّ الجدّة عندَ شاعرٍ مُكتملِ التّجربة، ويَهدِفُ البحثُ إلى إبرازِ أهمّ الأفكارِ والقيمِ الّتي تناولَها الشّاعرُ في قصائدِه الرّثائيّة الّتي نظمَها في أقاربه الّذين غيّبهم الموتُ.

منهجية البحث:

سنعتمدُ في دراستنا على المنهج الفنيّ، وهو منهجٌ (ذاتيٌّ– موضوعيٌّ)، يعدُّ من أقدم المناهج الّتي عرفَها النّقد، يُعْنى بدراسةِ العمل الأدبي دراسة شاملة، وإبراز خصائص الأديب الفنيّة، والتّعرف إلى قيمه الشّعورية والتّعبيرية، ومن أبرز خصائصه وأسسه: تذوّق النّص الفني ثمّ تحليله إلى عناصره الأساسية من فكرة، وعاطفة، وخيال (الصّورة الشّعرية)، وموسيقا وأسلوب (الألفاظ والعبارات والجمل و أساليب اللغة)،وهذا ماسندرسه في بحثِنا، إذ سنقوم بتحليلِ مراثي الشّاعر أحمد علي حَسَنْ المنظومة في أقاربه تحليلاً فنّياً، لنتعرّف إلى أهمّ القيم الشّعورية والتّعبيرية فيها. وتجدر الإشارة إلى أن الدكتور طه حسين أحد رواد المنهج الفني في العصر الحديث .

الرّثاء لغةً واصطلاحاً:

يرتبطُ المدلولُ اللغويُّ للرّثاء بالميّتِ والبكاء. والرّثاء في الأصل اللغويّ مصدرٌ للفعلِ (رَثَى) فيقال: " رثَيْتُ الميّتَ رَثْياً ورِثَاءً ومَرْثاةً ومَرْثيةً "[1]. ويدلُّ (رَثَى) في أصله اللغويّ على التّوجعِ والإشفاقِ " الرّاء والثّاء والحرف المعتلّ أُصَيْلٌ على رقّةٍ وإشفاق، يقال: رثَيْتُ لفلان: رقَقْتُ "[2]. والرّثاء في اللغة: بكاء الميّتِ وتعداد محاسنه " رَثَى الميّتَ رَثْياً ورِثَاءً ومَرْثاةً ومَرْثيةً بكاه بعدَ موته وعدّد محاسَنه"[3].

وكلمةُ الرّثاءِ اصطلاحاً تَعْني: بكاء الميّتِ وذكر مناقبه، وهذا المعنى يلاقي المادة اللغوية في أصل نوعها، وتمّ وصف الرّثاء بأنّه " من أصدق الأغراض الشّعرية وأكثرها تعبيراً عَنِ العاطفةِ، وأقواها تأثيراً في نفوسِ السّامعين، لأنّ الشّعرَ الصّادقَ هو الّذي يعبّرُ عَنْ وجدانِ صاحبه، وقلّما يخلو شعرُ الرّثاءِ مِنْ اشتعالِ الوجدان وتوقّدِ العاطفة "[4] ، كما قيل فيه: " الرّثاء من الموضوعات البارزة في ديوان الشّعر العربي، سواء في القديم أو الحديث، لأنّه يرتبطُ بظاهرة الموت الّذي كتبَه الله على البشر، ومن الطّبيعي أَنْ يحزنَ الإنسانُ، فضلاً عن الشّاعر؛ لفَقدِ أحبّته وغيابهم عن الأنظار "[5]

بالاستفادة مِنَ المعاني اللغوية و الاصطلاحيّة الّتي ذكرناها للرّثاء لايمكننا أَنْ نقولَ غير أَنّ الرّثاءَ موضوعٌ أدبيٌّ يتضمّنُ الحزنَ على الميّت والبكاء عليه وتعداد خصاله الحميدة، كما أنّه وسيلةٌ لإفراغِ القلوب مِنَ الأحزان.

التّعريف بالشّاعر أحمد علي حَسَنْ:

أديبٌ سوريٌّ مِنْ قريةِ الملّاجة التّابعة لمدينةِ طرطوس، وقد وافَتْه المنيةُ في ٢٠١٠/٧/٥م عَنْ عمرٍ يُناهِزُ ستة وتسعين عاماً قضاها في العطاءِ الأدبيّ والفكري، تلقّى علومَ اللغة العربيّة ومبادئها على يد والده، وشقيقه الأكبر الشّيخ عبد الكريم حَسَن، وكتبَ الشّعرَ في سنّ مبكرة، وأصدرَ أوّل مجموعةٍ شعريّةٍ (الزّفرات) عام ١٩٣٩م ، حيث كان في الثّانيةِ والعشرين من عمره، وأصدرَ عدّة دواوين منها (نهر الشّعاع)و (أنداء وظلال) و(على قبور الأحبّة) و (أغاني على طريق الحريّة).

مفهوم رثاء الأقارب:

يعدُّ رثاءُ الأقارب مِن أشدّ أنواعِ الرّثاءِ حزناً وألماً، حيثُ تكونُ العواطفُ فيه مُتأججةً مُلتهبةً مِنْ حرقةِ الفراقِ، فالشّاعرُ عندما يَرثي قريباً لهُ يَعْني أنّه يَرثي قطعةً مِنْ روحهِ ودمه، ولذلك سيكونُ الحزنُ كبيراً عندَه " إنّ موتَ أحد المقرّبين يولّدُ انفعالاً مِنَ الأسى والعذاب في نَفْسِ الشّاعر يجعله في حالةٍ تسمو بها مشاعرُه عنْ حدودها الطّبيعيّة وتتولّدُ لديه حالةٌ مِنَ الغلو "[6]. وقد عُدّ رثاءٌ وجدانيٌّ " نريدُ بالرّثاء الوجداني ما كان موجّهاً

---

(1) لسان العرب: ابن منظور، التّدقيق والمراقبة: قسم الدّراسات في دار نوبليس، ط١، دار نوبليس، بيروت، ٢٠٠٦، مادة (رَثَا)*

(2) مقاييس اللغة: ابن فارس، تحقيق وضبط عبد السّلام محمّد هارون، المجلّد الثّاني، دار الجيل، بيروت، د.ت، مادة (رَثَى).

(3) المعجم الوسيط: أخرجه ابراهيم مصطفى، أحمد حسن الزّيات، حامد عبد القادر، محمّد علي النّجار، أَشْرفَ على طبعه عبد السّلام هارون، الجزء الأوّل، ط٣، مكتبة الشّورى، دمشق، مادة (رَثَى).

(4) فن الرّثاء عند المرأة في الشّعر الأموي: نعيمة محمد عبد اللطيف بنون، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، السّعودية، ١٩٨٩، ص:٥.

(5) رثاء الأب في الشّعر العربي الحديث: عفاف ابراهيم حسين الخياط، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، السّعودية، ٢٠١٢،ص:٢.

- لقد وردَتْ كلمةُ (رَثَا) بالألف الممدودة في معجم لسان العرب وبالألف المقصورة في معجم مقاييس اللغة والمعجم الوسيط.

(6) المراثي الشّعريّة في عصر صدر الإسلام: مقبول علي بشير النّعمة، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٧، ص:١٤٨.

إلى الأهلِ وذوي القربى بصورةٍ خاصةٍ؛ لأنّ موتَهم يَسْتَدعي نَوْعَاً مِنَ الألمِ الفطري العميق ويتركُ في النّفسِ آثاراً متميّزةً تفرضُها روابطُ الدّمِ وصلاتُ الرّحم"[7]

وجهات رثاء الأقارب عندَ الشّاعر أحمد علي حَسَنْ:

لَقَدْ رَثَى الشّاعرُ أحمد علي حَسَنْ أقاربَه (أبوه، أخوته، أعمامه، أبناء أعمامه، أخواله، أبناء أخواله) في قصائدَ عبّرَ فيها عَنْ حزنِه وحسرتِه على رحيلهم، وسنقسّمُ في بحثِنا هذا مراثيه المنظومةِ في أقاربه، متناولين نماذجَ منها لنعرفَ أهمّ الأفكارِ والقيمِ الّتي أثارَها الشّاعرُ فيها.

أ. رثاء الأب:

رَثَى الشّاعرُ أحمد علي حَسَنْ والدَه في قصيدةٍ حملَتْ عنوانَ (على ضريح والدي)، والّتي نظمَها على تفعيلةِ البحر الكامل (متفاعلن)، وقد عبّرَ فيها عَنْ حزنِه الشّديدِ بسبب فراقِ أبيه، يقولُ في مَطْلعها واصفاً انكسارَه وأساه على رحيله:[8]

لَوْ كانَ غير أبي حبسْتُ دموعي وكتمْتُ لاعجَ زَفْرتي وولوعي

تجلّى حزنُ شاعرِنا في هذا البيت مِنْ خلالِ عدمِ قدرتِه على إخفاءِ لوعته وحسرته على رحيلِ والده؛ فلو كانَ الميّتُ شخصاً آخر غير والده ربّما استطاعَ أَنْ يتمالكَ أعصابَه ويضبطَ دموعَه، لكنّ المَرْثي الّذي فقدَه شاعرُنا هو والدُه، هذا ما جعلَه ضعيفاً أمامَ أحزانه لايقوى على كتمانِها. إنّ عدمَ قدرةِ الشّاعر على إخفاءِ أحزانه وكتمانِ دموعه أمامَ رحيل والده يُثْبِتُ أهميّةَ أبيه في حياته، ومكانته الكبيرة في نَفْسه؛ فعبارةُ (لوكان غير أبي) تدلُّ على أنَّ كلَّ النّاس بالنّسبة إلى الشّاعرِ في كفّةٍ وأنّ أباه في كفّةٍ أخرى، وكأنّ والدَه هو نقطةُ ضعفه. لقد اختارَ الشّاعرُ الكلمات الّتي تتلاءم مع مناخه النّفسي الحزين، ككلمة (دموعي) و(زفرتي) و(ولوعي) الّتي أوحَتْ جميعُها بمعاني الأسى والحسرة، ليدلَّ ذلك على مدى الانسجام الكبير بين طابع الشّاعر الشّعوري واللفظي. إنّ هذا الاستثناء الّذي خصَّ الشّاعرُ به أباه قد حثّنا على استكشافِ مزايا أبيه، وصفاته، ومدى تأثيرها في نفسِه، وهذا ما تبيّنَ من خلال قراءتنا للمرثيّة عندما راحَ الشّاعرُ يستحضرُ فيها حياتَه وذكرياتِه مع أبيه الّتي كانَتْ مليئةً بتفاصيلَ كشفَ لنا مِنْ خلالِها عَنِ النّعمِ الّتي أَسْبغَها والدُه عليه والّتي دلّتْ على مكانته الكبيرة عنده، وعن دوره المهمّ في حياته، يقولُ مُتحسّراً على الزّمانِ الجميلِ مع أبيه:[9]

أوّاهُ أَينَ أبي وأينَ فقدْتُه أوّاه كيفَ مَضَى بغيرِ رجوعِ
بالأمسِ كنْتُ إذا أتيْتُ يهشُّ لي طَرَباً ويرأبُ بالحنانِ صدوعي
يُخْفِي مواجعَه عليَّ تحفُّظاً أنّى وكانَ الدّاءُ شرَّ مُذيعِ

(7) اتجاهات الرّثاء في القرن الثّالث الهجري من خلال أعلامه (أبي تمام-دعبل الخزاعي-ديك الجن-ابن الرّومي): روضة المحمّد، دمشق،١٩٨٢، ص:٤٤.
(8) على قبور الأحبّة: أحمد علي حَسَنْ، الجزء الأوّل، ط١، أرواد، طرطوس، ١٩٩٧، ص:٩.
(9) المصدر نفسه: ص:٩.

وإذا رأى ألمي تضاحكَ وانبرى يُبْدِي جميلَ مزاحِه المَصنوعِ

إنّ حزنَ الشّاعرِ واضحٌ في الأبيات، فهو يعيشُ حالةً مِنَ الفَقْدِ المؤلمِ والشّوقِ اللاذعِ إلى أيّامه مع أبيه، وقد تجلّى هذا في صرخته المدوية وندبه المجروح (أوّاه)، هذه اللفظة الّتي أوحتْ بمعاني الوجع والألم، وقد كررها الشّاعرُ مرّتين في البيت الأوّل، ليدلّ تكرارُها على تأكيد شعور الألم الّذي يُقاسيه الشّاعرُ بعدَ موتِ أبيه، وجاءَ تكرارُها مُرتبطاً مع تكرار أسلوب الاستفهام (أينَ أبي)، (أينَ فقدتْه)، (كيفَ مَضَى) ليبيّنَ هذا كلّه حالةَ الشّاعرِ المضطربة والمُنفعِلة، كما أفادَ تكرارُ أداة الاستفهام (أين) في إثباتِ حالةِ الشّاعر الضّائعة، الباحثة عن أبيه، فهاهو يسألُ عنه كيفَ رحلَ بلا رجوع؟!. الظّاهرُ من خلال الأبيات أنَّ الشّاعرَ يَصْعبُ عليه تقبُّلُ فكرةَ رحيلِ والدِه، أي يعزُّ عليه التّعايشُ مع الواقعِ المُؤسفِ الخالي من أبيه، لذلك نراه ينتقلُ بعدَ النّدبِ مُباشرةً إلى استحضارِ الماضي الجميل الّذي كان أبوه فيه حاضراً، حيثُ الذّكريات والأيّام الجميلة، وكأنّه يريدُ الهروبَ مِنَ الحاضر الحزينِ الفارغِ مِنْ أبيه إلى الماضي الدّافئِ بحضوره، فها هو يسترجعُ ذكرياتِه مع والدِه، مُستخدِماً الأسلوب الخبري، ليخبرَ القارئ بمعاملةِ أبيه الطّيّبة، وأبوّته المعطاءَة حناناً وحبّاً، وليكشفَ له عمّا أمدّه والدُه به من أمانٍ وحبّ، لقد كان حنوناً معه ومُحبّاً له، يفرحُ برؤيته، ويبتسمُ عندما يراه،غامراً حياتَه بالعطف والحنان، كما كانُ يُمازحه ويضاحكه عندما يراه حزيناً لتخفيف همومه، لقد قادَتْنا اللحظةُ الّتي عادَ فيها الشّاعرُ إلى زمانه مع أبيه إلى معرفةِ أهميّةِ أبيه في حياته، واستكشافِ جمالِ الأيّام الماضية الّتي عاشَها معه، كما عكسَتْ في الوقتِ نَفْسِه حزنَ شاعرِنا بعدَ غيابه، وحاجته الماسّة إليه؛إذْ إنّه لم يفتقدْ أباه وحسب بل افتقدَ عطاءَه من حنانٍ وسند، فكأنّه يَرثي برحيلِ والدِه الخسارةَ الّتي حلّتْ به بعدَ موته، فقد رحلَ الحنانُ والأمانُ والفرحُ بالنّسبةِ إليه،هذا ماجعل رثاؤه لأبيه نابضاً بالحسرةِ والأسف، وهذا ما لمسْناه في قراءتنا للمرثيّة كلّها، ونجدُ أنَّه لاغرابة في ذلك، فَفَقدُ الأب صَعْبٌ للغاية، ومن الطّبيعي أَنْ يَنْعكسَ هذا بقوّةٍ في رثائه " فلعلّ رثاءَ الأب من أشدّ أنواعِ الرّثاءِ تعبيراً عن حرقةِ الفراق؛ لأنّ الابنَ الرّاثي يَبكي فيه الرّعايةَ والسّندَ والعشرةَ الطّويلةَ، كما أنّ العلاقةَ الّتي تربطُ الابنَ بأبيه لازيفَ فيها فهي علاقةُ الأبوّةِ الصّادقة"[10]. النّاظرُ إلى أبياتِ الشّاعرِ يجدُ أنّه وازنَ بينَ استعمال الأفعال الماضية والمضارعة، ولكلّ فعلٍ من هذه الأفعال دلالتُه فالأفعال الماضية (كنتُ)، (أتيْتُ)، (رأى)، (تضاحكَ)، (انبرى) دلّتْ على التّحقق والتّأكيد والثّبات، فالشّاعرُ يؤكّدُ للقارئ أنّ أباه كان يصممّ على ممازحته عندما يراه حزيناً من أجل تخفيف أحزانه، كما دلّتِ الأفعالُ المضارعة (يُبدي)، (يهشُّ)، (يرأبُ)، (يُخْفِي) على الاستمرارية والتّجدد؛ إذاً الشّاعرُ لايريدُ الانعتاقَ من الماضي الجميل الّذي كان والدُه حاضراً فيه ، بل يريدُ لهذا الماضي الاستمرارية والبقاء، ليعكسَ ذلكَ كلّه حبّ الشّاعر لأبيه وحزنه على رحيله.

لقد أكّد الشّاعرُ في رثائه لأبيه أنَّ رحيلَ والده كان بمنزلةِ الصّدمة الّتي جعلَتْه غيرَ قادرٍ على إعطاء المعنى الدّقيق، الّذي يعكسُ حالتَه الحقيقيّة بعدَ غيابه، وهذه الحالةُ تُسمّى (عدم القدرة على الإفصاح) وهي صعبةٌ يختلفُ تأثيرُها حسب تأثير المرثي في الرّاثي، ومكانته في حياته، فالّذي يرثيه شاعرُنا هو شخصٌ في غايةِ الأهمّية بالنّسبةِ إليه، إنّه والدُه، ولذلك صدمته برحيله كبيرةٌ جداً، ووجعه عميقٌ أيضاً، فلا بدعَ في أَنْ يواجهَ صعوبةً في انتقاءِ الكلمات المُناسبة الّتي تَفِي بنقلِ الأسى الّذي يشعرُ به بدقّة " إنّ من أصعب الأشياء

[10] رثاء الأقارب في شعر شعراء العصرين الزّنكي والأيّوبي (دراسة موضوعيّة فنّية): عادل محمد سليم الزّير، جامعة القدس، فلسطين، ٢٠٠٩، ص:٨٥.

أَنْ ينقلَ الإنسانُ حالةً وجدانيةً تطغى على وجوده وتهزّ كيانَه بعنفٍ وترجعُ الصّعوبةُ إلى أنّه يصطدمُ بعجزِ اللغة وقصورها عن التّعبير الدّقيق "[11]، يقولُ في ذلك:[12]

أبتاه تنتظرُ الرّثاءَ فهاكهُ ... ملءَ المحاجرِ مِنْ دَمي ودموعي

أبتاه يا رمزَ الحنان يخونُني ... في يومِ فَقْدِكَ مَنْطقي و بديعي

وأنا الّذي تَهوي الشّوارِدُ في يدي ... وأنا الّذي كانَ العصيُّ مُطيعي

نزلَ القضاءُ فكانَ فَقْدُكَ وحدَه ... يعنو لمشكلتي به موضوعي

نستبينُ من خلال ما وردَ في الأبيات أنّ حزنَ الشّاعرِ على فراقِ أبيه لم يتجلَّ فقط في الدّموعِ، وإظهارِ الأسى، بل تجلّى أيضاً في عدمِ القدرةِ على نظمِ الرّثاء الّذي ينقلُ ما يشعرُ به بدقّةٍ بعدَ رحيلِ أبيه، وهذا ما اتّضح في المقطعِ الّذي استهلّه الشّاعرُ بنداءِ أبيه مُستخدماً أسلوبَ النّداء (أبتاه)، والّذي تكرر أيضاً في البيت الثّاني (أبتاه)، (يا رمز الحنان)، وقد أفادَ استخدامُ أسلوب النّداء وتكراره في تأكيد حاجةِ الشّاعرِ إلى أبيه، ورغبته في استحضاره، فالشّاعرُ يَصِفُ لوالدِه العجزَ الّذي حلّ في بيانه بعدَ فراقه، فبعدَ أَنْ كان يهونُ أمامَ شعره كلُّ ماهو صَعْبٍ صارَ يُعاني من عجزِ القلم عن صوغ الكلمات الرّثائيّة الّتي تَصِفُ آلامه بدقّة، وقد أسهمَ استخدام الاستعارة المكنية (يخونني منطقي) الّتي شبّه فيها منطقه بإنسانٍ خائنٍ، في نقلِ حالةِ الشّاعر العاجزة عن التّعبير بعدَ موت والده، كما دلّ تقديمُ شبه الجملة (في يوم فقدك) على الفاعل (منطقي) في تأكيدِ تأثّر الشّاعر بفَقْدِ أبيه، فهو يريدُ إخبارَ القارئ بالأمرِ الأهمّ (فقد الأب)، كما يحاولُ جذبَ انتباهه إلى السّبب وليس النّتيجة، فبسبب فقد أبيه قد حلّ العجزُ في بيانه، الأمر الّذي يُثْبِتُ صعوبةَ مصابه، وكبرَ الأسى الّذي أثارَه رحيلُ والده في نَفْسِه.

ولم ينسَ الشّاعرُ في القصيدة أنْ يصوّرَ نعشَ أبيه الّذي شيّعه أهلُ قريةِ حمّين بحزنٍ وألم، يقولُ في ذلك:[13]

إنّي لألمحُ طيفَ نَعْشِكَ ماثلاً ... فوقَ الرّقابِ برَهْبَةٍ و خشوعِ

يتضوّعُ الرّيحانُ مِنْ جَنَبَاته ... والغارُ ملْء هلالِهِ المَرْفوعِ

والحشدُ خلفَكَ مثل نَعْشِكَ صامتٌ ... يَمْشي بقلبٍ في الضّلوعِ وجيعِ

طلعَتْ به حمّينُ فَهي كريمةٌ ... بالعاطفاتِ سخيّةُ التّشجيعِ

ينقلُ الشّاعرُ في أبياته صورةَ نَعشِ أبيه الّذي ينتشرُ في جنباته الرّيحانُ والغارُ، مُسلّطاً الضّوءَ على تهافُتِ أهلِ قريةِ حمّين إلى حَمله وتشييعه، وقد ملأهم الحزنُ والأسى، فهم يسيرون وراءَه بحزنٍ ورهبةٍ وخشوعٍ، هذا ما يعكسُ فداحةَ الموقفِ، وصعوبةَ الخطب، ويدلُّ بدوره على الحزن العام الّذي لفّ أرجاء القرية وأهلها على فراق والدِ الشّاعرِ، ليُثبتَ لنا ذلك أهميّةَ المرثي وقيمته عندَ الجميع وليس فقط عند ابنه (الشّاعر)، الأمرُ الّذي ينقلُ أثرَ خبر الموجع بوصفه إنساناً وليس فقط بوصفه أباً. عمدَ الشّاعرُ إلى استخدامِ الأسلوبِ الخبري

(11) اتجاهات الرّثاء في القرن الثّالث الهجري من خلال أعلامه (أبي تمّام- دعبل الخزاعي- ديك الجن- ابن الرّومي): روضة المحمّد، ص:٥١.

(12) على قبور الأحبّة: أحمد علي حَسَنْ، الجزء الأوّل، ص:٩.

(13) المصدر نفسه: ص:١٠.

في الأبيات، ليخبرَ القارئ ويؤكّد له حقيقةَ مشاركة أهل القرية بتشييع جثمان والده، ومدى حزنهم على رحيله، كما نوّعَ الشّاعرُ في استخدامِ الجمل؛ إذ وازنَ بين استعمال الجمل الفعلية والاسمية، فقد دلّتِ الجمل الاسمية على رسوخِ وثبات مايذكره الشّاعر، ودلّت الجمل الفعلية على الحركة.

اختتمَ الشّاعرُ قصيدتَه بالتّأكيد على أنّه سيبقى ذاكراً لأبيه وفيّاً لَهْ،مُبيّناً أنّ رضاه عليه هو مُنقذُه وشفيعه، يقولُ:[14]

حَسْبي وفاءً أنَّ ذكرَكَ لَمْ يَزَلْ كالنّفسِ في بَعْضي وفي مَجْموعي

وإذا تشفعّتِ النّفوسُ بغايةٍ فرضاكَ هذا مُنْقِذي و شفيعي

تهدأُ عاطفةُ الشّاعرِ في الأبيات؛ إذْ بدا وكأنّه يواسي نَفْسَه، ويُصبّرها بأنّ والدَه راضٍ عنه، فهذا الرّضا يكفيه ليُرْزَق بالشّفاعةِ والحماية.

ب.رثاء الأخوة:

رَثَى الشّاعرُ أحمد علي حَسَنْ أخوته الّذينَ غيّبهم الموتُ، وقد تميّزتْ مراثيه فيهم بالحزنِ والأسى واللوعة، وسنختارُ في بحثِنا قصيدةً من قصائدِه المنظومة في رثاء أخوته، لنقفَ على أهمّ الأفكارِ الّتي تناولَها فيها، فعلى سبيل المثال: يَرثي أخاه في قصيدةٍ حملَتْ عنوانَ (أبو محمّد)، المنظومة على تفعيلة البحر الكامل (متفاعلن)،وقد افتتحها بمقدّمةٍ حزينةٍ، نقلَ من خلالها حالتَه اليائسةَ على فراقِه، يقولُ:[15]

اليومَ بعدَ أبي محمّدَ لمْ أجدْ فَرَحَاً ولا أملاً أعيشُ لأجلهِ

وتركْتُ دَمعي حينَ ودّعني أخي في مقلتيّ يغيضُ في مَنْهلهِ

يُعربُ الشّاعرُ في مَطْلعِ أبياته عن الحالةِ الحزينةِ الّتي يحياها بعدَ فراقِ أخيه، إذ بيّنَ أنّ الفرحَ والأملَ قد فقدَهما بفَقْدِه، وأنّ الدّموعَ قد غاضَتْ في عينيه بعد رحيله، مُستعملاً الأسلوب الخبري، الّذي أفادَ في تأكيدِ حالته الحزينة بعد وفاةِ أخيه، ولعلّ في تقديم شبه الجملة (في مقلتيّ) على الفعل (يغيض) مايدلُّ على أهميّتها، فالشّاعرُ يسعى من خلال تقديمها إلى تأكيد أنّ عينيه كلتيهما قد غاضَتْ فيهما الدموعُ، وهذا كلّه ينقلُ حجمَ الأسى والمعاناة الّتي يشعرُ بها الشّاعرُ بعد خسارةِ أخيه. لقد جاءَتْ الألفاظُ محمّلةً بدلالاتِ الحزنِ مثل كلمة (ودّعني)الّتي تصبُّ في معنى الفراق، وكلمة (دمعي) الّتي توحي بالحزن، ونلاحظُ أنّ كلّ هذه الألفاظ سهلةٌ، واضحةٌ، بعيدةٌ عن الغرابة. لقد دلّتِ الأفعالُ الماضية (تركتُ ، ودّعني) على ثبات وتأكيد حدوث الفعل، ودلّ الفعل المضارع (يغيضُ) على استمرارية جفاف الدّموع في عينَيّ الشّاعر.

ثمّ ينتقلُ بعدَ ذلك إلى تعدادِ خصالِ أخيه،ومناقبه الطّيّبة، كالحنان والنّبل والأخلاق، يقولُ:[16]

أسَفي على القلبِ الرّحيمِ فإنّه حملَ الحنانَ بقَوله و بفعله

أسَفي على الخلقِ النّبيلِ فقد سما بهدى شمائله الحسانِ ونبلهِ

---

[14] على قبور الأحبّة: أحمد علي حَسَنْ، الجزء الأوّل، ص:١٠.

[15] على قبور الأحبّة: أحمد علي حَسَنْ، الجزء الثّاني، ط١، دار أمل، طرطوس، ٢٠٠٢، ص:١٤٠.

[16] على قبور الأحبّة: أحمد علي حَسَنْ، الجزء الثّاني، ص:١٤٠.

يركّزُ الشّاعرُ على إظهارِ حسرتِه وأسفه على خسارة أخيه، وذلك لما تحلّى به من صفاتٍ حَسَنةٍ، وقد وصلَ إلينا ذلك من خلال لجوئه إلى تكرار لفظة (أسفي)، هذا التّكرار الّذي سلّطَ الشّاعرُ من خلاله الضّوءَ على فكرةٍ مهمّةٍ بالنّسبةِ إليه، ألا وهي الحسرة والأسف على فقدان أخيه الّذي يتحلّى بمناقبَ حَسَنَة " التّكرار هو الإلحاحُ على جهةٍ مهمّةٍ في العبارة يُعنى بها الشّاعرُ أكثر من عنايته بسواها "[17] . ونلاحظُ أيضاً أنّ الشّاعرَ استخدمَ في الأبيات الأسلوبَ الخبري،الّذي أفادَ بدوره في تأكيد الصّفات الّتي تناولَها الشّاعرُ في تأبين أخيه، وقد كثُرَتِ الأساليبُ الخبرية الطّلبيّة مثل(فإنّه حمل) و (فقد سما) وأفادَ كلٌّ منها في تأكيدِ المعنى.

كما تضمّنَتِ المرثيةُ بيتاً واحداً، ذكرَ فيه الشّاعرُ مكانةَ أخيه منه، ودورِه في حياته،يقولُ:[18]

قَدْ كانَ لي سَنَداً أعيشُ بعَطْفهِ وأنامُ مرتاحَ الضّميرِ بظلّه

شبّه الشّاعرُ أخاه بالسّند، وقد أشارَ ذلكَ إلى أنّ لأخيه دوراً كبيراً في حياته، وفضلاً عليه،فكلمةُ السّند تحملُ دلالاتِ الطّمأنينة والحماية والأمان.

وقد توجّه الشّاعرُ في ختامِ المرثية إلى الله سائلاً إيّاه أَنْ يشملَ أخاه بالعفو والمغفرة، يقول في ذلك:[19]

ياربّ واشمله بعفوِكَ إنّه قد كانَ برّاً في ذويه وأهلهِ

ب. رثاء الأعمام وأبناء الأعمام:

نظمَ الشّاعرُ قصيدةً على تفعيلة البحر الوافر في رثاءِ عمّه،وقد ظهرَتْ فيها روحُه المُتْعبةُ المكسورةُ؛ إذْ بدأَها بمطلعٍ كَثُرَتْ فيه الاستفهاماتُ،يقولُ في مَطْلعها:[20]

سألْتُ الرّكبَ أَيْنَ أبي وعمّي وأَيْنَ مواكب الأحرار تَرْمِي

سألْتُ الفجرَ عَنْ مترقّبيه وعَنْ نَفَرٍ هنالكَ مُسْتجمّ

وملْتُ إلى عشيّاتِ الليالي أُسائِلُ كلَّ بارقةٍ ونجمِ

أيذهبُ؟! كيفَ يذهبُ سامروها ولم يكُ عندَها همٌّ كهمّي

يستهلُّ الشّاعرُ مرثيتَه بالاستفهام الّذي تكرّر كثيراً في الأبيات، ليدلَّ على مدى حيرته، وقلقه من مصيبةِ فقدانِ عمّه، والّتي بدورها ذكّرَتْه بمصيبة فقدانِ أبيه، وهذا ما ظهرَ فعلاً في أوّل أبياتِ المرثيةِ،والّذي سألَ فيه الشّاعرُ عَنْ أبيه وعمّه أين رحلا؟ وأينَ حطّتْ رحالهما؟ وقد عكسَ هذا الاستفهامُ الّذي خرجَ بدوره إلى التّحسّر حالةَ الشّاعرِ المكسورة، المُشتتة، الحزينة على فَقْدِ أبيه وعمّه، وعكسَ أيضاً مدى قيمةِ عمّه منه، وعظيم مكانته عندَه، إذ إنّ رحيلَه ذكّره برحيلِ والدِه، وهذا إنْ دلَّ على شيءٍ فإنّما يدلُّ على أنّ عمّه بمنزلةِ أبيه منه، وبالتّالي حزنه على عمّه سيكونُ كبيراً جداً، وهذا ماتجلّى في الأبيات الّتي ظهرَ فيها الشّاعرُ قَلِقَاً، حائراً، يسألُ الفجرَ عَنْ أبيه وعمّه ليبيّنَ ذلك عمقَ صدمته، وحسرته على رحيلهما. لقد استحوذَ أسلوبُ التّكرار إلى جانبِ أسلوب الاستفهام على مساحةٍ واسعةٍ في الأبيات،إذ تكررت أداة الاستفهام (أين) وتكرر الفعل (يذهب) ، وتكررت

---

(17) قضايا الشّعر المُعاصر: نازك الملائكة، ط٢، دار التّضامن، بغداد، العراق، ١٩٦٥،ص:٢٤٢.

(18) على قبور الأحبّة: أحمد علي حَسَنْ، الجزء الثّاني،ص:١٤٠.

(19) المصدر نفسه:ص:١٤٠.

(20) على قبور الأحبّة: أحمد علي حَسَنْ، الجزء الأوّل، ص:١١.

صيغُ السّؤال (سألْتُ)، (أُسائِلُ)، وقد أفادَ هذا كلّه في إثباتُ حالةِ الشّاعر المضطربة والحائرة والمصدومة من مصيبة فقدانِ أحبابها.

إنّ ما لاحظْناه في أثناءِ دراسةِ مراثي الشّاعر أحمد علي حَسَنْ المنظومة في أقاربه، هو أنّه مع كلّ جرحٍ جديدٍ، وفَقْدٍ يتعرّضُ له يعودُ بذاكرته ليستحضرَ صورةَ أقاربه الرّاحلين كلّهم، ويحزن عليهم، فكثيراً ماكانَتْ جراحُه الجديدة تهيّجُ ذكرى جراحه القديمة،وهذه الظّاهرة قد لمسْناها في رثاءِ الأعمام، فمثلاً في القصيدةِ هذه نجدُ أنَّ حزنَه على رحيلِ عمّه، قد هيّجَ كلَّ كوامنِ الحسرة في داخله، وذكّره بأقاربه الرّاحلين الّذين غيّبهم الموتُ، يقولُ في ذلك:[21]

فراقُ الأهلِ لسْتُ أقولُ يُبْكي ولَكِنْ إذْ أقولُ: أقولُ يُدْمِي
أمامَ ضريح مرهج ذابَ قلبي وفوقَ ضريح يوسف ذابَ جسمي
وعندَ ثرى أبي ياويحَ نَفْسِي تحطّمَ ساعدي وانهدَّ عَزْمي

إنّ هذه الأبيات صرخةٌ من قلبٍ مَكْلومٍ كيف لا؟!، وقد نقلَتْ لنا حالةَ الشّاعرِ المفجوع بأقاربه، فرحيلُ عمّه جعلَ ذاكرتَه تتأسّى من جديد وتستحضرُ صورةَ أقاربه الرّاحلين، مما جعلَ قلبه ينفطرُ هو الآخر حزناً وألماً، يصوّرُ الشّاعرُ في الأبيات صعوبةَ فراقِ الأهل، مُستعملاً الأسلوب الخبري، وقد أفادَ في تأكيدِ مرارةِ موت الأهل والأقارب،فالشّاعرُ يُقدّمُ فكرةً لا شكّ فيها، فموتُ الأهلِ والأقارب حدثٌ جللٌ ووقعُه في النّفس موجعٌ جداً "تواجه الإنسانَ في حياته صدماتٌ شتّى، تُسبّبُ له الحزنَ والأسى، وأعظم تلك الصّدمات فراق الأحبّة!، والفراق يكونُ على صورٍ شتّى، فقد يكونُ لسفرٍ عارضٍ، أو لنكبةٍ طارئةٍ، وأشدّ صوره إيلاماً ماكان سببه الموت"[22] .
لقد أدمى الشّاعرَ فراقُ أحبّته، إذ نراه يتأمّلُ قبورَهم بحرقةٍ وحزنٍ، واصفاً شعورَه الحزين حينها، لقد دلّ الفعل (انفطر) على حسرةِ الشّاعر، كما وضّح الفعل (تحطّمَ) انكسارَه وضعفه أمامَ مصيبة موت أعزّائه، وبدوره حملَ الفعل(انهدّ) دلالاتِ العجز والأسى والحزن، وكذلك أفادَ تكرارُ الفعل (ذابَ) في تأكيدِ حالةِ الشّاعر المُنفطرةِ من الحزن.وقد أعطى تكرارُ الفعل (أقول) البيتَ الأوّل جرساً موسيقيّاً جميلاً.

ويلجأُ الشّاعرُ في ختامِ المرثية إلى الرّضا والتّسليم بأمر الله تعالى، مُسْتحضراً أبياتاً فلسفيّةً، وقفَ من خلالها على تقلّبِ الليالي، وتبدُّل أحوالها، يقولُ:[23]

هي الأيّامُ قُلْ وهي الليالي رواصد كلّ إنسانٍ و شَهْمِ
وإنّ المرءَ ذو وطرٍ شرودٍ فَمِنْ حربٍ يمرُّ بها لِسلْمِ
فسلّم: أمرُ ربّك خيرُ أمرٍ وحكمُ الله ربّكَ خيرُ حكمِ

يؤكّدُ الشّاعرُ أنّ الليالي مصيدةٌ للإنسان، وأنّها تحملُ له الأيّامَ السّالمة، والّتي رمزَ لها برمز (السّلم)، والأيّامَ العصيبةَ والّتي رمزَ لها برمز (الحرب)،لقد أضفى الطّباقُ على البيت قيمةً جماليةً، تجلّتْ في إعمال العقل في المتناقضات، كما اتضحت في الأبيات عاطفةُ الشّاعرِ الهادئة المتماثلة إلى الحكمة والتّأمّل.

---

[21] على قبور الأحبّة: أحمد علي حَسَنْ، الجزء الأوّل، ص:١٢.
[22] التّشبيه في مختارات البارودي (دراسة تحليلية): محمد رفعت أحمد زنجير، جامعة أم القرى، السّعودية،١٩٩٥، ص:٢٤١.
[23] على قبور الأحبّة: أحمد علي حَسَنْ، الجزء الأوّل، ص:١٢.

رَثَى الشّاعرُ أحمد علي حَسَنْ أبناءَ أعمامه في قصائدَ عكسَ من خلالها حزنَه وأساه على رحيلهم؛ إذْ بلغَتْ حرارةُ الحزنِ فيها درجاتٍ كبيرةً، وهذا ما لمسْناه فعلاً في أثناء معالجتِها، وسنختارُ منها قصيدةَ (عبرات لاتغيض)والّتي رَثَى فيها ابنَ عمّه، وقد نظمَها على تفعيلة البحر الكامل (متفاعلن)، يقولُ في مَطْلعها واصفاً حالتَه الباكية الحزينة:[24]

أَتَغيضُ بعدَ فراقكمْ عَبْرَاتي أَمْ تستطيعُ خُبُوتَها زفراتي

أَمْ يسلكُ السّلوانُ نحوي مَسْلكاً لجِباً وقد عمَّ الحنينُ جهاتي

تظهرُ عاطفةُ الشّاعرِ الحزينة على فَقْدِ ابنِ عمّه في الأبيات بوضوح؛ وقد واتّضح ذلك من خلالِ كثرة استخدامه الأسلوبَ الإنشائي الطّلبي (الاستفهام) الّذي أفادَ في توضيح حالةِ الانفعال والاضطراب الّتي يعيشُها الشّاعرُ بعدَ موتِ ابنِ عمّه، فها هو يتساءلُ بحسرةٍ: هل ستجفُّ دموعُه بعدَ فراقِ ابنِ عمّه؟ أَمْ ستستطيعُ أنّاتُه الاحتفاظَ بها؟، ليثبتَ هذا كلّه أسى الشّاعر وحسرته على رحيلِ المرثي، وقد تأكّد ذلك أيضاً من خلال لجوءِ الشّاعر إلى تقديمِ (بعدَ فراقكم) على الفاعل (عبراتي) ليدلّ ذلك على أهميّتها بالنّسبة إلى الشّاعرِ، ومدى تأثيرها في نَفْسِه، إذاً يريدُ الشّاعرُ إلقاءَ الضّوءِ على مسألةِ السّبب الّذي أدّى إلى جفاف دموعه وهو (الفراق)، ما ينقلُ أثرَ الفراق وصعوبته عندَ الشّاعر، ثمّ يتكررُ أسلوبُ الاستفهام في البيت الثّاني ليدلّ على تحسّر الشّاعر؛ إذ يسألُ مُسْتغرِباً: كيف سيزوره التّصبّر وهو المُحاصَرُ بالحنين والأشواق؟، لقد أفادَ الأسلوب الخبري الطّلبي (قد عمّ الحنينُ جهاتي) في تأكيد سيطرةِ الحنين على مشاعرِ الشّاعر، كما عبّرتِ الاستعارةُ المكنية (عمّ الحنين) عن ذلك أيضاً.

وقد جاءَتْ ألفاظُ الشّاعر سهلةً، رقيقة، موحية، معبّرة عن الحزن والأسى نذكرُ منها: (عبراتي)، (زفراتي)،(الحنين).

ثمّ يتوجّهُ الشّاعرُ بعدَ ذلك إلى فقيدِه طالباً منه أَنْ يشاركَه في ذَرْفِ الدّموعِ، مُبيّناً أنّها تُعينُ الإنسانَ على تخفيفِ جروحِه ومواساةِ أحزانه، يقولُ في القصيدة:[25]

يا صاحبي و قَضى المنونُ بما تَرَى هاتِ اهمِ دَمْعَكَ مع خليلكَ هاتِ

لا تحملَنّ على الدّموعِ فربّما دمعٌ يُساعِدُ في الأسى و يُؤاتي

تنوّعتِ الأساليبُ الإنشائيةُ الطّلبيّة في الأبيات، فقد استخدمَ الشّاعرُ أسلوبَ النّداء (ياصاحبي) ليدلَّ على رغبته في استحضار فقيدِه، ليطلبَ منه أَنْ يشاركَه في ذَرْفِ الدّموع، مُستخدماً أسلوبَ الأمر (هات)، (أهم) الّذي دلّ على طلب القيام بالفعل، فالشّاعرُ يريدُ من ابن عمّه أَنْ يذرفَ الدّموعَ معه، مُبيّناً أنّها وسيلةٌ مُساعدةٌ تُخفّفُ الآلامَ والأحزان. ولعلَّ تشبيه الشّاعر للدّمع بإنسانٍ مُساعد على سبيل الاستعارة المكنية (دمعٌ يُساعد) يعكسُ قدرةَ الدّمعِ في تطهير الجروح وتخفيفها.

[24] المصدر نفسه: ص:١٨٦.

[25] على قبور الأحبّة: أحمد علي حَسَنْ، الجزء الأوّل، ص:١٨٦.

ثمّ بعد ذلك ينتقلُ الشّاعرُ إلى ذكرياته مع ابن عمّه الرّاحل، والّتي أفردَ لها حصةً ليسَتْ قليلةً في المرثية؛ إذ راح يحرّرُ شريطَ ذكرياتِه مع فقيده مُعرِباً عن حسرته وحزنه على رحيله،يقولُ:[26]

ويلاه يا ابنَ العمّ فَقْدُكَ ساءَني وأثارَ فيّ كوامنَ الحسراتِ
مَنْ ذا يُشنّفُ بَعْدَ بُعدِكَ مَسْمعي. بلطائفِ الألحانِ والنّغماتِ
لَمْ أَنْسَ يا ابنَ العمّ عهدَكم معي ولو اضطجعْتُ كأَنْتَ في الحفراتِ
أيّامَ كانَ الدّرسُ يجمعُ بينَنا. والبحثُ والتّنقيبُ في الحلقاتِ
كَمْ ليلةً بتْنا وكنْتَ مُسَامري. و مُحدّثي و مُحبّذاً كلماتي
يا ليلةً ذهبَتْ بشخصِكَ إنّها كانتْ علينا أسوأَ الليلاتِ

يصوّرُ الشّاعرُ في الأبيات الأسى الّذي أثارَه رحيلُ ابنِ عمّه في نَفْسِه،فقد بدأَ الأبياتَ نادباً (ويلاه)، لتعبّرَ هذه اللفظة عن التّحسّر والتّألم الّذي يسيطرُ على الشّاعر بعدَ موت فقيدِه، ثمّ ينتقلُ بعدَ ذلك إلى محطّةِ ذكرياتٍ عاشَها معه، والّتي كشفَ لنا مِنْ خلالِها عن عمقِ العلاقة الّتي تربطهما، حيث استحضرَ أيّامهما الجميلة، ومافيها من مواقفَ وتفاصيلَ جمعَتْهما استحضاراً مليئاً بالحسرة، وذلك لأنّ ابنَ عمّه الّذي شاركَه بها قد رحل، وقد تبيّن هذا في سؤاله لابن عمّه الّذي خرجَ إلى الحسرة، والّذي قال فيه: مَنْ سَيطربُ بعدَ رحيلك مَسْمعي بالألحان اللطيفة العذبة؟، إنّ الشّاعرَ في لحظةِ مقارنةٍ مليئةٍ بالأسف، فهو يُقارِنُ بينَ ماضيه مع ابن عمّه الّذي كان يزخرُ بالأوقات المُمتعة، وبينَ حاضره الحزين الّذي لم يتبقَّ فيه إلا ذكريات الماضي المُؤلمة،والّتي أكّد على عدمِ نسيانها حتّى ولو صارَ مدفوناً تحتَ التّراب، فها هو يعودُ إليها من جديدٍ ليبثّها في مرثيته، مُستخدماً الأسلوب الخبري، إذاً يريدُ إخبارَنا بالذّكريات الجميلة الّتي قضاها مع ابن عمّه، فيذكرُ صحبتَهما الرّائعة، وأيّامَ الدّروسِ والبحثِ والتّنقيب والليالي الّتي كانا فيها يتسامران، مُتّفقين في الآراء، ثمّ يصحو في البيت الأخير من أحداث الماضي وذكرياته إلى فقيده مُخاطباً إيّاهُ ومؤكّداً له أنّ الليلةَ الّتي أَودَتْ به هي ليلةٌ سيئةٌ وعصيبة.

لقد أغنى المُحسّنُ البديعي (الجناس النّاقص) الأبياتَ بالقيمةِ الجماليةإذ أعطى النّص جرساً موسيقيّاً، وتناغماً جماليّاً، نذكر مثلاً: (بعد، بعدك) في البيت الثّاني و (ليلةً، الليلاتِ) في البيت الأخير، كما ساهمَتِ الاستعاراتُ المكنيةُ في توضيح المعنى، كصورةِ (فَقْدُك أثارَ فيّ) والّتي شبّه فيها الفقدَ بإنسانٍ يثير أو يحرّك، وقد أفادَتِ الصّورةُ في تأكيد كبر تأثير فَقْدِ المرثي في نفس الشّاعر.

وبعدَ أَنْ أفاضَ الشّاعرُ في حديثه عن ذكرياته مع ابن عمّه الرّاحل نجدُه يختتمُ المرثية بالدّعاء للفقيد بالرّحمة، يقولُ:[27]

وبها تحفُّك رحمةٌ قدسيةٌ يا طاهرَ الغدواتِ والرّوحاتِ

ت.رثاء الأخوال وأبناء الأخوال:

[26] المصدر نفسه: ص:١٨٧.
[27] على قبور الأحبّة: أحمد علي حَسَنْ، الجزء الأوّل، ص:١٨٧.

قد تشابهَتِ مقدّمةُ قصيدةِ (بكاء الخال) الّتي رَثَى الشّاعرُ فيها خالَه، مع أغلب مقدّماتِ القصائد الرّثائيّة الأخرى الّتي نظمَها في أقاربه من حيث وصف الحالة الحزينة الباكية الّتي يعيشُها الشّاعرُ إثرَ الفَقْدِ والموت، يقولُ في مَطْلعها:[28]

أَمِنَ الّدمعِ قَدْ تَغيضُ عيوني؟ أَوَ تشكوَ القراحَ منه جفوني

يستهلُّ الشّاعرُ مرثيتَه بأسلوبِ الاستفهامِ، الّذي شرحَ لنا من خلاله صعوبةَ الحالة الّتي يمرُّ بها، فهاهو يتحسّرُ على عيونه الّتي غاضَتْ فيها الدّموع، ويتأسّى على جفونه الّتي تشتكي من الألم، لقد أفادَ الشّاعرُ من خلال تشبيه جفونه بإنسانٍ يشكو ألماً على سبيل الاستعارة المكنية في توضيح كبر الألم والوجع الّذي حلّ في جفونِ الشّاعر من كثرةِ الحزن على فقيدِه، كما نلاحظُ أنّ الشّاعرَ لجأَ إلى تقديم المفعول به (القراح) على الفاعل (جفوني) وذلك ليؤكّدَ هذا التّقديم أهميّةَ كلمة (القراح) بالنّسبةِ إلى الشّاعر؛ إذ إنّه يسعى إلى تبيان فكرة الألم المتشكّل في جفونه.

ثمّ ينتقلُ إلى تأبينِ خاله الرّاحل، وتعدادِ خصاله الحميدة، ويجدرُ القولُ: إنّ التّأبينَ مِنَ الألوان البارزة في مراثي الشّاعر، ويكونُ الشّاعرُ في هذا مُلتزماً بنيةَ قصيدةِ الرّثاء الّتي تقومُ في الأساس على الإشادةِ بالميّتِ، وذكر محاسنه، يقولُ في تأبينِ خاله، وقد أشادَ بمكانته الرّفيعة، ومآثره الحميدة، مُعرباً عن أَسفه الشّديد على فَقْدِه، مؤكّداً أنّ رحيلَه خسارةٌ كبيرةٌ، يقولُ في ذلك:[29]

فلعمري ذُهلتُ حينَ نَعاني ناعي الحزْنِ بالأجَلِ الفَطينِ

حضرةُ الخالِ ذي المفاخرِ والمجدِ وأهل الحجى بدنيا ودينِ

الأجلّ النّبيه غوث الأوامى صاحبُ الفضل الكريم الأمينِ

يصوّرُ الشّاعرُ في الأبيات ذهولَه عندما خُبِرَ بوفاةِ خاله، وقد استعانَ لتأكيدِ ذلك باستخدامِ القَسَم (لعمري)، فكأنّه غيرُ مُتوقّعٍ أَنْ يَفْقدَ رجلاً بحجمِ خاله، وذلك لِمَا يتّصفُ به من صفاتٍ حَسَنَةٍ وسجايا كريمةٍ، عدّدها الشّاعرُ في أبياته مُشيداً بها، يذكرُ الشّاعرُ أنّ خالَه الرّاحل صاحبُ منزلةٍ مرموقةٍ، ومكانةٍ عاليةٍ، وصاحبُ رأيّ سديدٍ وحكيمٍ في الأمور الدّينيّة والدّنيوية، كما أنّه نبيهٌ، وجليلٌ، وكريمٌ، وأمين.

ويتقدّمُ الشّاعرُ في ختامِ المرثية إلى أولادِ خاله الرّاحل، طالباً من الله أَنْ يخلّدَ أباهم في جنانِ النّعيم، يقولُ:[30]

خلّدَ اللهُ في الجنانِ أباكم بينَ حورٍ على الأرائكِ عينِ

يدعو الشّاعرُ لخاله بالرّحمة والخلود في جنان النّعيم، مقدّماً في البيت شبه الجملة (في الجنان) على المفعول به (أباكم) ،وبعد إمعان النّظر في هذا التّقديم نرى أنّ الشّاعرَ يريدُ شدّ انتباه القارئ إلى مصيرِ خاله الّذي يتمنّاه له.

---

[28] على قبور الأحبّة: أحمد علي حَسَنْ، الجزء الثّاني، ص:١١٤.

[29] على قبور الأحبّة: أحمد علي حَسَنْ، الجزء الثّاني،ص:١١٤.

[30] المصدر نفسه: ص:١١٥.

كما ألقى الشّاعرُ أحمد علي حَسَنْ بوفاةِ ابنِ خاله مرثيةً، حملتْ عنوانَ (سلطة الموت)، وقد نظمَها على تفعيلةِ البحر الخفيف ، والّتي كانَ مَطلعُها مُختلفاً عن مَطالعِ باقي المراثي الأخرى؛ إذْ لمْ ينقلْ فيه حزنَه وحسرتَه فقط، بل نقلَ حزنَ العائلةِ كلّها، وحسرتَها على رحيلِ أحبابِها، وقد أكّد أنّ حظَّ العائلةِ قليلٌ لأنّها خسرَتْ أفرادها في ربيعِ عطائهم، يقولُ والحسرةُ تتضحُ في كلماته:[31]

حزنُنا الحزنُ إنّه لشديدُ يا ابنَ خالي فما العزاءُ مُفيدُ

عَجَباً دوحُنا يطيحُ به العا صِفُ يا خالُ كلّما اخضرَّ عودُ

مالنا بالورودِ حظٌّ فقد تذبلُ في روضِنا الجميلِ الورودُ

إنّ هذه الأبيات لتقطرُ حزناً، فقد صوّرَ الشّاعرُ فيها فاجعةَ العائلةِ الكبرى برحيلِ المَرْثي، ونجدُه يتكلّمُ بلسانِ الجماعة ليبرهنَ على أنّه ليس وحدَه المُتألّم من موتِ عزيزِه، بل العائلة كلّها مُتألّمة وحزين، فخسارتُه هي خسارةٌ للجميع وليس فقط للشّاعر، وهذا إنْ دلَّ على شيءٍ فإنّما يدلُّ على قيمةِ المَرثي وأهميّته، وأثره عندَ الجميع، ولذلك هم حزينون على موته، وقد وصفَ الشّاعرُ حزنَ العائلةِ بأنّه شديدٌ مُستخدماً اللام المزحلقة (لشديد) لتؤكّدَ معنى الحزن، ويبيّنُ الشّاعرُ أنّ حزنَهم لا يخففه عزاءٌ، ثمّ يتعجّبُ بحسرةٍ من الموت، الّذي شبهّه بالرّياح العاصفة كيفَ يَضربُ أحبّته، وينالُ منّهم في عزّ عطائهم، وربيعِ عمرهم، ليؤكّد أخيراً أنّ حظَّ العائلةِ قليلٌ، فهي خسرَتْ أفراداً مثل الورود، لقد عكسَ الشّاعرُ من خلال تشبيه أقاربه بالورود جمالَهم، ونضارتَهم، وإشراقَ المرحلة الّتي هم فيها، كما عكس من خلال الفعل (يذبل) سطوةَ الموت الّتي أَوْدَتْ بهم، وأَذْبلَتْ جمالَهم، ثمّ ينتقلُ الشّاعرُ بعد هذه المقدّمة الّتي وصفَ فيها حزنَ العائلةِ على رحيلِ فقيدِها إلى فقيده، ليوردَ لنا صفاتِه الّتي تحلّى بها من نباهةٍ وذكاء وثقافة، ويكونُ الشّاعرُ في هذا قد أثبتَ أنّ فقيدَه واحدٌ من بينِ الأعزّاء الكُثر، أصحاب الشّأن الرّفيع الّذين خسرَتْهم العائلة، يقولُ مُتأسّفاً على ابن خاله الرّاحل:[32]

أَسَفاً يا حسينُ، أينَ الحديثُ الط طلقُ، والمبحثُ البليغُ الفريدُ

أَسَفاً يا حسينُ، أينَ النّبوغُ ال فذُّ، أينَ المثقّفُ الغرّيدُ

يتأسّفُ الشّاعرُ على فقيده صاحب الذّكاء الفذّ، والحديث الثّمين، والثّقافة العالية، مُتحسّراً على هذه المزايا العظيمة الّتي رحلَتْ برحيله، لقد أفادَ تكرارُ عبارة (أسفاً يا حسين) في تأكيد حجمِ الحسرة على فقدانِ الشّاب حسين، كما أفادَ تكرارُ أداة الاستفهام (أين) في تأكيد حالةِ الفراغ الّتي خلّفها موتُه.

وتضمّنتِ المرثيةُ هذه لومَ الليالي ومعاتبتَها، والشّكوى من مصائبها الّتي نزلَتْ في أحبابِ الشّاعر، وأودَتْ بهم، يقولُ مُعاتباً الليالي غاضباً منها:[33]

كيفَ لا ننكرُ الليالي وفيها كلّ يومٍ لنا مصابٌ جديدُ

كيفَ لم نشكُ عادياتِ الليالي وفتانا هو الفقيدُ الفقيدُ

(31) على قبور الأحبّة: أحمد علي حَسَنْ، الجزء الأوّل، ص:٧٢.

(32) على قبور الأحبّة: أحمد علي حَسَنْ، الجزء الأوّل، ص:٧٢.

(33) المصدر نفسه: ص:٧٢.

يُعاتِبُ الشّاعرُ الليالي بعاطفةٍ غاضبةٍ حزينة مُستخدماً أسلوبَ الاستفهام، الّذي أدّى دوراً كبيراً في تأكيدِ أحقّيةِ الشّاعر في مُعاتبة الليالي، وذلك لأنّها كلّ يومٍ تحملُ له فاجعةً جديدةً، ومصيبةً قاسيةً، وتوقعها في أحبابه، ونجدُ أنّ ألفاظَ الشّاعر جاءَتْ موافقةً لعاطفته الحزينة، فمثلاً كلمة نشكو الّتي تحملُ معنى الشّكوى، وكذلك لفظة (عاديات)و (مصاب) الّتي تصبّ في معنى البلوى والفاجعة، كما تشيرُ كلمة (ننكر) إلى الاستياء. هكذا نجدُ أنّ ألفاظَ الشّاعر تنتمي جميعُها إلى معجمِ الحسرة والحزم والفَقد.

وقد أنهى الشّاعرُ مرثيةَ (سلطة الموت) بالحديث عن قريةِ حمّين، فراح يؤكّدُ ثباتَها في وجه مصائب الزّمان، مُبرزاً شموخَها واعتزازَه بها، يقولُ:[34]

قِفْ بحمّينَ، فهي من عبقرِ الشّعـ ـرِ، وفي أفقه خيالٌ شرودُ

ما أُصيبَتْ مِنَ القرى مثل حمّي نَ بخيرِ البنين أمٌّ ولودُ

فاقسُ يا دهرُ ما استطعْتَ عليها فهي كالطّودِ، راسخاً لا يميدُ

يتناولُ الشّاعرُ في الأبيات ثلاثَ صورٍ لقرية حمّين، أولها: القرية المثقّفة الرّائدة في ميدان الشّعر والبيان، والثّانية: صورة القرية الثّكلى المفجوعة بخير أبنائها، والثّالثة: صورة القرية الصّامدة الصّابرة أمامَ مصائبِ الدّهرِ ونوائبه، إنّ كلّ ما صوّره الشّاعرُ في الأبيات يُثْبِتُ عظمةَ قريته وتميّزها، كما يدلُّ على حبّ الشّاعر الكبيرِ لها، واعتزازه بها وبأبنائها الكرام.

الخاتمة:

- رَثَى الشّاعرُ أباه في مرثيةٍ وصفَ فيها حزنَه الشّديد على رحيله، وحسرته على غيابه، كما عرض في رثائه ذكرياته وأيامه الجميلة معه، واقفاً عند خصاله الحميدة، وأبوّته المعطاءة؛ إذ عرّف القارئ بدور والده المهمّ في حياته، وراح يصوّر في المرثية مشهدَ تشييعه،وقد اختتم المرثيه معاهداً والده على الوفاء، طالباً منه الرّضا والشّفاعة.

- تناولَ الشّاعرُ في رثاء أخيه مناقبَه الحَسَنة، ومزاياه الحميدة، كما سلّطَ الضّوءَ على دورِه وأثره في حياته، مُظهِراً الحزنَ على فَقدِه، وقد اختتمَ المرثية بالدّعاءِ لأخيه بالرّحمة والمغفرة .
- طفحَت مراثي الشّاعر المنظومة في أعمامه وأخواله بالحزن والحسرة، وقد تأسّفَ فيها على خسارتهم، ذاكراً صفاتِهم الطّيّبة، ومناقبهم الحميدة، كما شملَتِ مراثيه فيهم التّعزية والدّعوة إلى التّصبّر، واسترجاعَ صورة الأقارب الرّاحلين وإظهار الحسرة عليهم.
- تناولَ الشّاعرُ في رثاءِ أبناءِ أعمامه وأخواله مناقبَهم الكريمة، مسلّطاً الضّوءَ على مكانتهم، وأهميّتهم، كما ركّزَ في رثائهم على استرجاع ذكرياته الجميلة معهم، وقد نقلَ في رثائهم حزنَ العائلة كلّها على غيابِهم.
- حضرتِ قريةُ حمّين في مراثي الشّاعر، وقد وصفَ شموخَها، وأبرزَ اعتزازَه بها وبأهلها الكرام.
- تضمّنَتِ مراثي الشّاعر المنظومة في أقاربه لومَ الليالي ومعاتبتَها والشّكوى منها، كما أنّها لم تخلُ من الحكمة والتّأمّل.

[34] المصدر نفسه: ص:٧٣.

- خيّمتِ العاطفةُ الحزينة المُنْكسِرة على مراثي الشّاعر؛ فلا نلمحُ في قصيدةٍ منها فتوراً في حدّةِ العواطف، بل لاحظْنا الحزنَ والحسرةَ والأسى
- اختارَ الشّاعرُ لتجربته الشّعورية الكلمةَ المعبّرة، فأصبحَتِ ألفاظُه مطابقةً لإيقاعِ شعوره، ومتصلةً بتجربته النّفسية،مما خلقَ الانسجامَ الكامل بين طابع مراثيه الشّعوري وطابعها اللفظي.
- لم يُكثرِ الشّاعرُ من استخدام الصّور البيانية، والمحسّنات البديعية في مراثيه، ونعزو ذلك إلى أنّه كان مشغولاً في نقل حزنه ومصابه الّذي آلمه إلى القارئ أي أنّه يعيشُ حالةً نفسيةً عصيبةً غير مستقرة لا تسمحُ له بإعمالِ فكره، وكدّ ذهنه في الزخرفة اللفظية والخيالية، مما يعكسُ صدقَ عاطفته.
- لجأَ الشّاعرُ إلى الأساليب اللغوية ووظّفها في مراثيه، كأسلوب الاستفهام والنّداء، والتّقديم والتّأخير،والتّكرار، وقد كان أسلوبُ الاستفهام من أكثر هذه الأساليب حضوراً في مراثي الشّاعر.
- وازنَ الشّاعرُ بين استعمال الجمل الفعلية والاسمية في مراثيه، كما وازنَ بين استعمال الأفعال الماضية الّتي دلّت على الثبات والتّحقق، وبين الأفعال المضارعة الّتي دلّتْ على الاستمرارية والتّجدد.
- جاءَت ألفاظُ الشّاعرِ سهلةً، واضحةً، معبّرةً عن معاني الحزن والأسى.
- نظمَ الشّاعرُ مراثيه على تفعيلة البحر (الكامل، والوافر، والخفيف)، وكانت تفعيلةُ البحر الكامل أكثر التفعيلات شيوعاً في مراثيه.

- **المصادر والمراجع:**

القرآن الكريم

١ *اتجاهات الرّثاء في القرن الثّالث الهجري من خلال أعلامه* (أبي تمام– دعبل الخزاعي– ديك الجن– ابن الرّومي): روضة المحمّد، دمشق، ١٩٨٢م.

٢ *التّشبيه في مختارات البارودي (دراسة تحليلية)*: محمّد رفعت أحمد زنجير، جامعة أم القرى، السّعودية، ١٩٩٥م.

٣ *رثاء الأب في الشّعر العربي الحديث*: عفاف ابراهيم حسين الخيّاط، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، السّعودية، ٢٠١٢م.

٤ *رثاء الأقارب في شعر شعراء العصرين الزّنكي والأيّوبي* (دراسة فنيّة): عادل محمد سليم الزّير، القدس، فلسطين، ٢٠٠٩م.

٥ *على قبور الأحبّة*: أحمد علي حَسَنْ، الجزء الأوّل، ط١، أرواد، طرطوس، ١٩٩٧م.

٦ *على قبور الأحبّة*: أحمد علي حَسَنْ، الجزء الثّاني، ط١، دار أمل، طرطوس، ٢٠٠٢م.

٧ *فنّ الرّثاء عند المرأة في الشّعر الأموي*: نعيمة محمد عبد اللطيف بنون، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، السّعودية، ١٩٨٩م.

٨ *قضايا الشّعر المُعاصر*: نازك الملائكة، ط٢، دار النّضامن، بغداد، العراق، ١٩٦٥م.

٩ *لسان العرب*: ابن منظور، التّدقيق والمراقبة: قسم الدّراسات في دار نوبليس، ط١، دار نوبليس، بيروت،٢٠٠٦م.

١٠ *المراثي الشّعريّة في عصر صدر الإسلام*: مقبول علي بشير النّعمة، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٧م.

١١ *المعجم الوسيط*: أخرجه ابراهيم مصطفى، أحمد حسن الزّيات، حامد عبد القادر، محمد علي النّجار، أشرفَ على طبعه عبد السّلام هارون، الجزء الأوّل، ط٣، مكتبة الشّورى، دمشق، د.ت.

١٢ *مقاييس اللغة*: ابن فارس، تحقيق وضبط عبد السّلام محمد هارون، المجلّد الثّاني، دار الجيل، بيروت ، د.ت.